﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ [النّحل: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خَيرُ اللهِ للخَلق نـازِلٌ، وشَرُّهُم إليه صاعِدٌ

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ أنّ الكُفّارَ يُشركون باللّه بعد إنعامِه عليهم، وكَشفِ الضُّرِّ الّذي أصابهم؛ جاءَت هذه الآيةُ لتُهدّدَهم على هذا السّلوكِ المُخالِفِ للفطرةِ والعقلِ في شِركهم باللّه؛ فقال لهم: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾.

ومِنَ المناسبة أيضًا أنّه لمّا بيّنَ في الآيةِ السّابقةِ سَبْقَ خَيرِهِ إليهم في كَشف الضُّرِّ عنهم، وصُعودَ شَرِّهم إليه سبحانه بشِركِهم بَدلَ شُكرِهم! بيَّنَ هنا في هذه الآيةِ أنّ شِركَهُم في مَوضِعٍ يَستوجِبُ شُكرَهُم، يَلزَمُ عنه الكُفر بالحَقّ والنِّعمة، فقد كفروا بالحَقّ لمّا أشركوا، وكفروا بالنِّعمة لمّا لم يَشكروا، فهذا مِن ذاك.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾: أصلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيءِ، يُقالُ: مَتَع النَّهارُ يَمتِعُ مَتْعًا؛ أي: بَلَغَ غايَةَ ارتِفاعِه، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَودَةِ[1]، والتَّمَتُّعُ: الانتِفاعُ بالمَتاعِ، والمَتاعُ في الأصل: كلُّ شَيءٍ يُنتَفَعُ بِهِ ويُتبلَّغُ بِهِ ويُتَزوَّدُ؛ والفناءُ يأتي عليهِ في الدُّنيا[2]، والتَّمتِيعُ: الإمهالُ، وكلُّ مَوضِعٍ ذُكِرَ فيه تمتَّعوا في الدُّنيا فعلى طريق التّهديدِ[3]، ويُطلَقُ على التَّعميرُ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥﴾ [الشعراء: 205]؛ أي: أطَلْنا أعمارَهُم[4]، والمقصودُ بالمتاع في الآية: الانتِفاعُ القصيرُ زَمَنُهُ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(3) الرّاغب، المفردات: (متع).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (متع).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التّهديدُ والوعيدُ لمَن يكفرُ ويَجحدُ ويُشركُ

بيّنَت هذه الآيةُ أنَّ فريقًا مِنَ المُشركين يُشرِكون باللهِ في العبادة مع توالي نِعَمِهِ عليهم، ودَفعِ نِقمِهِ عنهم؛ لتكونَ عاقبةُ شِركِهم وأثَرُه أن يكفروا بما آتاهم مِنَ النِّعَم، ويُنكِروا كونَها منه دونَ غيرِهِ، ثمّ أنذرَهُمُ اللهُ وهدَّدَهُم بسوء المَصير، فقال: فتَمَتَّعوا في حياتِكم الدُّنيا قليلًا - أيُّها المُشرِكونَ - فسوف تَعلَمونَ عاقِبةَ كُفرِكم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصلِ الآية عمّا قبلَها:

تحذيرٌ ووعيدٌ، وتخلُّصٌ إلى نوعٍ آخرَ مِن قبائحِ المُشركين

فَصَلَ قولَه تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنّه جملةٌ طلبيّةٌ - هذا على القول بأن اللام للأمر كما سيأتي - واردةٌ كالطّبع على جملة الكلام، وكالتّخلُّص إلى نوعٍ آخَر مِن قبائحِ المُشركين[2].

دلالةُ اللّام في قوله ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾:

الإشراكُ باللهِ أصلُ كلِّ شرٍّ ومُنكَرٍ

تعدَّدَت آراءُ العلماء في المُراد باللّام في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾؛ فمنهُم مَن قال: إنّها (لام) العاقِبةِ والصّيرورةِ، وعلى هذا تكونُ اللّامُ مُتعلِّقةً بقوله: ﴿يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النحل: 54]؛ أي: يُشرِكون ليكفروا، فالكُفرُ غايةٌ للإشراكِ وعاقبةٌ له، وغرضُ الإشراكِ هو الكفرُ بما آتيناهُم مِنَ الحقِّ والنِّعَم، ومنها: كشفُ الضُّرِّ في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النحل: 54]، وعلى هذا المعنى: فاللّام في ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ لامُ العاقبةِ والصّيرورةِ، وهو المُسَمَّى بالتّعليل المَجازيِّ؛ أي: جُعِلَ كُفرُهم بما آتيناهُم كأنّه عِلَّةٌ غائيّةٌ لإشراكهم.

ومنهم مَن قال: إنّها بمعنى (كي)، وتكون اللّامُ في قوله: ﴿يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ [النحل: 54 - 55] على معنى التّعليل

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 252، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 442، ومجموعة من العلماء، التّفسير الوسيط: 5/ 632.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 139.

الحقيقيِّ، مبالغةً في تقبيح كُفرِهم لِلأنعُم الظّاهرة الّتي لا يرتابُ في دلالتها على فاعلِها مَنْ بَقِيَت له أَثَرَةٌ من عقلٍ وعِلمٍ، فالمعنى: يشركون كي يكفروا بما آتيناهم عمدًا وقصدًا، فيتوسَّلون بالشِّرك لِكُفر ما آتيناهم؛ إغراقًا منهم في الغَيّ ورُكوبِ الهوى والجناية[1].

ومنهم مَن ذَهَبَ إلى أنّ اللّامَ في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ لامُ الأمرِ الجازِمَةِ، وعلى هذا: فالابتداءُ بها أصالةً صحيحٌ، مِن غير تعليقِها بما قبلَها لفظًا، ومعنى الأمر: التّهديدُ والإيعادُ، على نحو قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصّلت: 40]، كأنّه قِيلَ هنا: لِيكفروا كما شاؤوا فإنّهم مَجزِيّون على هذا الكفر أشَدَّ الجزاء، ويوافِقُه الجملة الإنشائيّة بعدَه ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ بِعطفِ إنشاءٍ على إنشاءٍ، والفاءُ للجواب، ومَجازيّةُ لام الأمرِ هنا في التّهديد والوعيد مِن باب المَجاز المُرسَلِ الّذي علاقتُه الإطلاقُ والتّقييدُ[2].

ومنهم مَن ذَهَبَ إلى أنّ اللّامَ في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ على معنى السّببيّة؛ أي: كفْرُهُم بالنِّعمة والحَقّ سببٌ في إشراكهم؛ أي: يشركون بسببِ أنّهم يَكفرون بما آتيناهُم[3].

والفرقُ بين اعتبار اللّام للسّببيّة، واعتبارِها للتّعليل؛ أنّ قولَه: ﴿يُشۡرِكُونَ ۝٥٤﴾ [النحل: 54] نتيجةٌ مُسَبَّبَةٌ على الاعتبار الأوّلِ، وقولَه: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ هو النّتيجةُ على الاعتبار الثّاني.

نُكتةُ التّعليلِ بقوله ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾:

إجـــراءُ وصفَي الشّركِ والكُفرِ عليهم

نُكتةُ تعيينِ كُفر النّعمةِ في الذِّكرِ دونَ غيرِه في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ ولم يجعل في حيّز التعليل تركيبًا آخَر، لوجوهٍ معتبَرٍ تقريرُها، وهي كالآتي:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 502.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 207، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 8/ 443، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 230.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 88.

الأوّلُ: قَصدُ الجمعِ بينَ الشّركِ وكفرِ النِّعمةِ؛ لاشتراكِهما في نِسبةِ ما هو حقٌّ للّهِ لغيره، فالشّركُ نِسبةُ حَقِّ الأُلوهيّةِ لغير اللّه، وكُفرُ النِّعمةِ يكونُ بنسبة الفضلِ فيها لغيرِه سبحانَه، أوِ اعتقاد استحقاقِها مِن غيرِ أن يكونَ الإلهُ مُتفضِّلًا بها.

الثّاني: التّنبيهُ على مقامين مُتلازمَين لا ينفكُّ الإنسانُ عنهما؛ حالُه مع المُنعِم، وحالُه مع النِّعمة، فأخبرَ أنّ حالَهم مع المُنعِم الشّركُ، وحالَهم مع النّعمة الكفْرُ.

الثّالثُ: خَصَّ الكفْرَ بما آتاهمُ اللّهُ مِنَ النِّعم؛ لأنّ قَوام العبدِ لا يتمُّ إلّا بالنِّعم، فكأنّه قِيلَ: أشركوا باللّه، وحتّى النِّعَمُ الّتي لا تُخْطِئُها حواسُّهم، ولا يَبقَون إلّا بها، لم تُغنِ عنهم شيئًا في قضية الإيمانِ، فلم ينظروا فيها دليلًا على وحدانيّة اللّه؛ لِيعودوا إلى رُشدِهم بعدَ شِركهم، بل كَفَروها، ونسبوها إلى غير باريها، فأخبَرَ أنّ الشِّركَ باللّه حالَ بينهم وبينَ الاستفادة مِن أدلّ الظّواهر والبيّنات الّتي بين أيديهم على وحدانيّة اللّهِ، وهي النِّعمُ الّتي لا يَنفكّون عنِ الانتفاع بها، ولا وجودَ لهم بدونِها.

سرُّ التّعبير بالكُفر دون غيرِه:

عَبَّرَ بالكُفر في قولِه: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ للدّلالة على أنّهم في إطباقٍ مِن إنكار الحَقِّ[1]، إنكارِ حَقِّ اللّه في العبوديّة الخالصة له بإشراك غيرِه معه، فيكفرون هذا الحَقَّ ويسترونَه، ويُنكرونَ حَقَّ النِّعمة بعدم شُكرها ونسبتِها إلى غير المُنعِم بها، أو ينسبونَها إليه مِن غير رؤيتِهم لفضلِه فيها، فيكفرون هذا الحَقَّ ويسترونَه، فلمّا كان معنى الكُفرِ حاضرًا في هاتين النِّسبَتَين، كان التّعبيرُ بلفظ الكفر أنسبَ في حيّزِه، وأمكَنَ في مَوقعِه.

الكُفرُ إنكارٌ لحَقِّ اللهِ تعالى في العبوديّة الخالصةِ، وذلك بإشراك غيرِه معه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفر).

سرُّ تعلُّقِ ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ بقوله ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾:

تكاثُرُ النِّعمِ مِن دواعي الإيمان الّتي تُؤذِنُ به

جملةُ ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ هي مُتعلَّقُ الجارِّ والمجرور مِنَ الموصول وصِلَتِه ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾[1]، وسِرُّ هذا التَّعلُّقِ الدّلالةُ على أنّهم كافرون بأظهر الدّلائلِ على بُطلان الشّركِ، وهي النِّعمُ الّتي لا يَقْدِرُ على إيصالها وإيتائِها لهم إلّا اللّه، فعَلَّقَ الفعلَ في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ بالفعل في قوله ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾، وقيّدَه به للإشارة إلى حجْبِهم عنِ الاستفادةِ بأظهر برهانٍ، فبَدَلَ أن يستفيدوا منه بالنّظر والاعتبار والاستدلال به على وحدانيّة الخالِقِ لا شريكَ له؛ عطّلوه بنسبَتِه إلى غير مصدرِهِ وجهتِهِ الحقيقيّةِ، فازدادوا عمًى فوقَ العمى، وتمَّ انقطاعُهم عن أسباب الهُدى، ووسائلِ التّبصُّر، واستدراكِ النَّكَسات.

دلالةُ التّعبير بالمضارع:

استحضارُ الفعلِ القبيح مع قُبحِ صورةِ فاعِلِه

عَبَّرَ بالمضارع في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ للدّلالة على تَكرار ذلك منهُم، فهُم كافرون وما زالوا يَكفرون، ففيه دلالةٌ على عدم الانفكاكِ عنِ الحدث باستمرارِهم وتصميمِهم عليه، ولا يخفى ما في ذلك مِن إحضار صورتِهم أمامَ السّامع، وهم يُزاوِلون الكُفْرَ، ويتلبَّسونَ بخِصالِه، كأنّهم مُشاهَدون في الحال، وهم يَتعمَّدون الكفْرَ، ويأتونَ به، ففي التّعبير بالمُضارعة استدعاءٌ وتحضيرٌ للحال المُشاهدَةِ، وهي تصدرُ عنهُم، وهذا مِنَ التّشديد في الاستهجان منهم، والمبالغةِ في إظهار خصالِهمُ الرّديئةِ، وهي تنشأُ وتحصُلُ؛ لأنّ استحضارَ القبيحِ، وهو يحصُلُ، إيذانٌ بتصوير قُبحِ فاعِلِه.

بلاغةُ الاستعارة:

يَلقَى الكافرُ عاقبةَ كفرِه، وقد كان مُتغافِلًا عنها

على اعتبار كون اللّام في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ للعاقبة والصّيرورة، وهي الدّالّةُ على أنّ مدخولَها هو مآلُ الفِعل السّابقِ عليه، وأحدُ نواتجِه، مِن غير أن يكونَ ذلك النّاتجُ غرضًا مَقصودًا مِنَ الفاعل،

(1) صافي، الجدول: 14/ 335.

وعلى هذا يكونُ في معنى اللّام هنا استعارةٌ تَبعيَّةٌ[1]، حيث شَبّهَ العِلّةَ المقصودةَ مِنَ الفِعلِ بالعاقبة الحَتميّةِ للشّيء الّذي لا تَعمُّدَ ولا غرضَ للفاعل بإحرازه، بجامع النّاتجيَّة في كلٍّ.

سرُّ التّعبير بالضّمير في ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ بَدلًا مِنَ الظّاهر:

فـي الإعـراض إهمالٌ وإقصاءٌ، والـجـزاءُ من جنس العمل

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بالضّمير في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ بدلًا مِنَ الظّاهر؛ فلم يقُلْ: (ليكفرَ فريقٌ منهم بما آتيناهم)، كما قال: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، اعتمادًا على الظّاهر السّابق، فأتى بضمير السّابق دون لفظه؛ لوضوحه وعدم خفائه، وعدم الالتباس في تعيينه، ولعدم التّكرار اللّفظيِّ الّذي لا لُزومَ له ولا مُقتضَى، فأغنى الضّميرُ عن الإعادة المَكروهة للّفظ، وفي الإضمار إعراضٌ عن ذواتهم، وإهمالٌ وإقصاءٌ، فلمّا كان فِعلُهم فِعلَ كُفرانٍ وجُحودٍ، والكفرانُ تغطيَةٌ للحَقّ وإقصاءٌ لقضيّته، بحيثُ توارَى فلا تُرَى، كان الإضمارُ أولى بهم، وأحقَّ تغطيةً لهم، وإقصاءً في الذِّكر والمعنى، كأنّه إشارةٌ إلى أنّ الجزاءَ مِن جنس العمل، فعومِلوا في التّعبير عنهُم بما عَمِلوه.

دلالةُ التّعبير بالموصول (ما):

نِعَمُ اللهِ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى

في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ عَبَّرَ بـ (ما)، وهي مَوصولٌ مُشتَركٌ مُبهَمٌ يُفيدُ العمومَ[2]، لدلالته على مُتعدِّدٍ مُتنوِّعٍ، وهي النِّعمُ الوافرةُ والدّلائلُ الظّاهرةُ مِنَ العِلمِ والحَقِّ، وهذا دليلٌ على أنّ نِعَمَ اللّه عَصيّةٌ على الحصرِ والعَدِّ.

سرُّ التّعبير بالإيتاء:

مَـن أوتيَ شيئًا فقد تيسَّرَ له

في قوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ عَبَّرَ بالإيتاء دونَ غيرِه، مِنَ الإعطاء والمِنحَة وغيرِهما، فلم يقُلْ: (أعطيناهُم) أو (منحناهُم)،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 406.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 131.

للدّلالة على ثلاثة أمورٍ تتعلَّقُ بالمُؤتِي؛ وهو اللّهُ ﷻ، والمُؤْتَى إليه؛ وهو الإنسانُ، والمُؤْتَى؛ وهي النّعَمُ.

فبالنّسبة للمُؤْتِي (وهو الله العظيم)، يدلُّ لفظُ الإيتاء على أنّ المُؤْتِيَ يفعلُ ذلك عن رِضًا وسِعَةٍ، وكمالِ قُدرةٍ وإرادةٍ، والحاصل في ذلك أنّ الإيتاء هو إحضار الشّيء، وإيصاله للمعطي، وجعْلُه يأتي إليه، ولا يُسنَدُ إلّا إلى عظيمٍ، ولا يُقالُ إلّا في كثيرٍ، ولا يجري إلّا في مَقامِ الاختيارِ والتّيسيرِ.

وأمّا المُؤْتَى إليه (وهو الإنسان) فلفظُ الإيتاءِ يدلُّ على إيصالها إلى حيّزِ الإنسانِ بيُسرٍ وسُهولةٍ، مِن غير أنْ يتوقَّفَ ذلك على قبولِه مِن عدمِه، ومعنى ذلك: أنّهم مُنَعَّمون مَرزوقونَ، ولو لم يَلتَمسوا النّعيمَ والرّزقَ ويَسعَوا إليه.

وأمّا المُؤتَى (وهي النِّعَم) فلفظُ الإيتاءِ يدلُّ على كَثرتها في النّوع والعدد، وعلى جودتها في المَنفعةِ والقَيمَةِ.

دلالةُ التّعبير بالماضي:

التّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ للدّلالة على تحقُّقِ الإيتاءِ وتمامِه، وفي ذلك إشارةٌ إلى مكتوبِ القَدَرِ الّذي فُرِغَ منه أزَلًا؛ لأنّ اللّه كَتَبَ عندَه حَظَّ كلِّ مخلوقٍ مِنَ الرّزق والإنعام، فهذا أمرٌ مُحقَّقٌ مَفروغٌ منه، ولذا عَبَّرَ عنه بالماضي؛ للدّلالة على أنّ ما قَدّرَه اللّهُ للنّاس أمرٌ أزليٌّ.

تحقُّقُ الإيتاء وتمامُه

دلالةُ التّعبيرِ بنون العَظَمة:

نونُ المُتكلِّم الجمعيّ في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ لتعظيم المُتكلِّم وإجلالِه، وهذا التّعظيمُ للفاعل الجليل سبحانَه لائِقٌ ومُتَّسِقٌ مع عظمةِ الفِعلِ وعظمةِ المفعول، ففِعلُ الإيتاءِ عظيمٌ لاقتضائه قُدرةً واختيارًا، والمفعولُ مادّةُ الإنعامِ والرّزقِ عظيمةٌ لكثرتها ووفرتِها،

عظمةُ الرّازقِ دلالةٌ على عظمة الرّزقِ

وتنوُّعِها وجودةِ آثارِها، وعدمِ تناهي مَنافعِها، فحَسُنَ لأجل هذه القرائنِ معنى التّعظيم الّذي تضمَّنَته النّونُ.

سرُّ التّعبيرِ بالفاء في ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾:

لا خيرَ في متاعٍ يَؤولُ إلى النّار

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالفاء في جملة: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾؛ لتَعَدُّدِ المُرادِ بها؛ فيَصِحّ أن تكونَ سببيّةً لتفريع الأمرِ بالتَّمتُّع على كفرِهم[1]، فإنّ كُفرَهم سببٌ للتَّمتُّع، بحيث يترتَّبُ عليه الوعيدُ الشّديدُ؛ أي: فتَسَبَّبَ عن كفرِهم بهذا الإيتاء العظيمِ للنِّعَمِ أنْ يُؤمَروا بالتَّمتُّع بما أوتوه على سبيل التّهكُّم والإلماح إلى تهديدِهم[2]، ويَصِحُّ أن تكونَ الفاءُ فصيحةً، عاطفةً مدخولَها على شرطٍ مُقَدَّرٍ مفهومٍ مِنَ السّياق، تقديرُه: إنْ كفرْتُم فتمتَّعوا، أو مُفصِحَةً عن قولٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: قُلْ لهُم: فتمتَّعوا، وتقديرُ القول مَردودٌ إلى تقدير الشّرطِ؛ لأنّ معنى القول مع الفاء لا بدّ أن يكونَ على معنى: قُلْ لهُم إنْ كفرْتُم فتمتَّعوا[3].

دلالةُ الأمرِ في قوله ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾:

التّهديدُ والوعيدُ

صيغةُ الأمر في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ للتّهديد وإفساحِ الأمَلِ بما يَستوجِبُ المُؤاخذَةَ وعدمَ الإعذار، فالأمرُ مَجازٌ مُرسَلٌ لعلاقة الإطلاقِ والتّقييد، وليس على حقيقتِه الأصليّة، مِن طلبِ الفعلِ على جهة الإلزامِ والاستعلاء[4].

سرُّ إطلاقِ لفظ (المتاع) على مَنافِعِ الدُّنيا:

مَتاعُ الدّنيا سريعُ الزّوالِ

أُطلِقَ لفظُ المَتاعِ في قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ على مَنافِعِ الدُّنيا؛ للدّلالة على سرعةِ انقضائِها في الوقت، وسرعةِ زوالِها في الإحساس والشّعور؛ لأنّها مادامَتْ مَتاعًا فهي مُؤقَّتَةٌ، والمُؤقَّتُ محدودٌ وإنْ طال، فثبتَ أنّ المتاعَ سريعُ الفوات، غيرُ ثابتٍ ولا مَضمونٍ، وما كان كذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 181.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 298.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 8/ 443.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 406.

فجديرٌ بالعاقل ألّا يَرْكَنَ إليه، وألّا يَغفُلَ به عن اللّهِ الجليل الّذي جادَ به، وعَبَّرَ عن مَنافِعِ الدُّنيا بالمَتاع تسميةً للشّيء بما يَؤولُ إليه ويُبتغَى منه، على سبيل المَجاز المُرسَلِ لاعتبار ما يكونُ، وهي علاقةُ الأيلولَة، إذِ المَنفعةُ تَؤولُ للمُتعة، فالمَنافعُ تُحَصَّلُ للاستمتاعِ بها غالبًا، وتُحَصَّلُ لغرضِ استدامتِها مُدّةً طويلةً، لِضمانِ الاستقرارِ في خَيرِها، إذِ الالتذاذُ والتّمتُّعُ لا يَتمُّ إلّا ببقاء المَنفعةِ زمنًا، فسَمَّى المَنافِعَ باسمِ مَقاصِدِ أصحابها منها[1].

دلالةُ حذف مُتعلّق ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾:

إرادةُ التّعميم للإغلاظ في التّهديد والوعيد

لم يُذكَرْ مفعولُ التَّمتُّع في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾، فلم يقُلْ: تمتَّعوا بكذا أو كذا؛ لإرادة التّعميم؛ أي: تمتَّعوا بكلّ ما أمكنَكم التَّمتُّع به ممّا آتيناكموه، والغرضُ مِنَ التّعميم الإغلاظُ في التّهديد والوعيدِ، فإنّه في معنى: تمتَّعوا ما شئتُم مِنَ المَتاع، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصّلت: 40]، فإنّ إفساحَ الأملِ في مَقام الإنذارِ دالٌّ على عقوبةٍ مُؤجَّلةٍ.

بلاغةُ الالتفات:

الخطابُ أنسبُ بالموعظة، وأعرقُ في إقامة الحُجّةِ

الالتفاتُ مِنَ الغَيبة إلى الخطاب من قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾[2]؛ لأنّ الأليقَ بالأمر أن يكونَ خطابًا، وهو أبلغُ من (فلْيَتمتّعوا)؛ ليتناولَ كلَّ حاضرٍ، وليأخُذَه كلُّ سامعٍ وكلُّ حاضرٍ مِنَ المُشركين على نفسِه، فالخطابُ أنسبُ بالمَوعظةِ المُباشِرةِ، وأعرقُ في إقامةِ الحُجّةِ.

مَوقِعُ جملة ﴿فَسَوۡفَ﴾ ممّا قبلَها:

إغلاظُ الوعيد بعدَ الوعيد، دليلٌ على جمعِهم بين صفتَي الشّرك والكُفر

جملة: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ استئنافيّةٌ تعليليّةٌ؛ لترتيبِ مَدخولِها مِنَ العِلمِ المُستقبليِّ على تمتُّعِهم، فعِلمُهُم بجزاءِ كفرِهم وعاقبتِه، وظهور ذلك لهم، مُرَتَّبٌ على مَتاعِهم، ويصحُّ أن تكونَ الفاءُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/ 316، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 179، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 298.

فصيحةً، وهي الفاءُ العاطِفةُ مَدخولَها على شرطٍ مُقدَّرٍ؛ أي: إذا كفرتُم وتمتَّعتُم فستعلمون ما يحصلُ لكُم مِنَ الجزاء، وفائدةُ التّعقيبِ بها بعد قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ إغلاظُ الوعيدِ بعدَ الوعيد؛ لأنّ في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ تهديدٌ، وفي قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تحقيقٌ لِما هدَّدَ به؛ لأنّه إخبارٌ في معنى الإنشاء؛ أي: اعلموا ما سيحلُّ بكم، وارتقبوا مَوعِدَه[1].

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ دون السّين:

لا عذرَ لأحدٍ في كُفْرِه، بعدَ بلاغِ الرُّسلِ

عَبَّرَ بـ (سوف) في قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ دون السّين؛ لأنّ السّينَ تدلُّ على الوقوع القريبِ وعلى الإمهال فقط؛ بخلاف (سوف) فإنّها تدلُّ على الوقوع البعيدِ وعلى الإبطاء والتّأخيرِ الزّمنيِّ، وفي هذا دلالةٌ على إرخاء الإمهالِ، وفائدةُ التّعبير بـ (سوف) هنا: الإيذانُ بأنّ التّمتيعَ المَذكورَ حاصِلٌ على أتمِّ وجوهِهِ، وأطولِ مُدَدِهِ، وهذا أبلغُ في نفي العُذرِ وإقامة الحُجّةِ.

دلالةُ التّعبير بقوله ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

إفادةُ الجزمِ بالوعيدِ، واليقينِ في التّهديد

التّعبيرُ بـ﴿تَعْلَمُونَ﴾ لإفادة الجزمِ بالوعيد واليقين في التّهديد، فعِلمُهم بما ينتظِرُهُم كائنٌ لا مَحالةَ، ومُلاقاتُهم له حقٌّ معلومٌ لا يُخالطُه شكٌّ، ولا تعتريه شبهةٌ.

سرُّ حذفِ مُتعلَّقِ الفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

ذهابُ النّفسِ في تَعيّنِهِ كلَّ مَذهَبٍ

حَذفُ مُتعلَّق ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ للإشعار بأنّ الوعيدَ لا يوصَفُ، وهذا أبلغُ وأهولُ في تصوير العذابِ، ولصيانة الفاصلةِ ألّا تنخرِمَ، ولدلالة السّياقِ على المَحذوف، فقوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ﴾ دالٌّ على مُتعلَّقِ ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: تعلمون جزاءَ الكُفرِ وعاقبتَه[2]، ولم يعيِّنْ هذا

(1) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 7/ 199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 180.

الجزاءَ وأبهمَه بالحذف لتهويلِه، كأنّه لا يوصَفُ[1]، فليس له نظيرٌ يُقاسُ عليه في مِقدار هَولِه.

مُتشابِهُ النّظم:

تشابهَت هذه الآيةُ مع سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [العنكبوت: 66]، ومع سورة الرّوم في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [الرّوم: 34].

والملاحظُ وجودُ اللّام في مَوضِع العنكبوت دون مَوضِع النّحل والرّوم، وسببُ ذلك اختلافُ السّياق في كلٍّ منهم؛ فمَوضِعُ النّحل جاء بعدَ قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النّحل: 54]؛ فهو خطابٌ يَعُمُّ ولا يخصُّ، أمّا مَوضِعُ العنكبوت فقد سبقَه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ الآية [العنكبوت: 65]؛ فالأمرُ فيه مَبنيٌّ على الخصوص؛ لأنّ الخطابَ لا يتناولُ إلّا الّذين ركبوا في الفُلك[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإعطاءُ والإيتاءُ:

يُسنَدُ العطاءُ إلى الكثير والقليل، أمّا الإيتاءُ فيُسنَدُ إلى الكثيرِ والعظيمِ

العطاءُ: هو مُناوَلَةُ الشّيءِ للغير، فهو أصلٌ في الأخذِ والتّناولِ.

والإيتاءُ: هو إحضارُ الشّيءِ وإيصالُه لِلمُعطَى، وجعلُه يأتي إليه، فهو أصلٌ في المَجيءِ والحضورِ، واستعمالُ الإيتاء في الإعطاءِ؛ لكونِ العطاءِ يقتضي مُناوَلَةَ الشّيءِ بعد إحضارِه، فالإيتاءُ أوّلًا ثمّ العطاءُ، ويختلفُ الإيتاءُ عن الإعطاء من ثلاثةِ وجوهٍ:

الأوّلُ: أنّ الإيتاءَ يكونُ عن طِيبِ نفسٍ لا عن إكراهٍ، والعطاءُ قد

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 406.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 299.

يَحتَمِلُ معنى الإكراه، كما قال في الجِزيَة: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29]، فجُعِلَ الإعطاءُ فيما كان عن غلبةٍ وقهرٍ.

الثّاني: أنّ الإيتاءَ يكونُ في الشّيء عزيزِ القِيمة، كثيرِ المَنفعة، عظيم القَدرِ، والعطاءَ قد يكونُ في البخسِ والقليل، كما يكونُ في العظيم الكثيرِ، فقد أسندَ العطاءَ إلى القليل في قوله: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النّجم: 34]، ولذا كان الإعطاءُ فيما يُنتَقَلُ عنه إلى ما هو أعلى منه، ولذا قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ لانتقاله مِنَ الكوثر إلى ما هو أعلى منه، وهو الجنّة ومزايا النّعيم الأحسن، وأمّا الإيتاءُ فلم يُسنَدْ إلّا للعظيم والكثير كقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [ص: 20]، وقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ [طه: 99]، وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾ [النّساء: 54].

الثّالث: الإيتاءُ لا يتوقَّفُ على قبولِ الآخِذِ وموافقته، فهو حقيقٌ بالإيتاء من غير اعتبارِ مَوقِفه، ولذا كان فعلُ الإيتاءِ أقوى مِنَ الإعطاء، ولذا ففِعلُ الإيتاءِ لا مُطاوعَ له مِن لفظه، كما في الإعطاء، يُقالُ: آتاني فأخذتُهُ، وفي الإعطاء يُقالُ: أعطاني فعَطَوْت؛ وما له مطاوعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعولِه ممّا لا مُطاوِعَ له، ولذا لم يَقُلْ في الزّكاة: (ويُعطون الزّكاةَ)؛ لئلّا يَحتَمِلَ توقّفها على القبول، كما قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التّوبة: 29]، فإنّ عطاءَهم الجزية مُتوقِّفٌ على قبولِ المسلمين منهم ذلك[1]، ولذا فقد عَبَّرَ بالإيتاء هنا في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾؛ ليدلَّ على أنّهم كفروا بنِعمٍ عظيمةٍ ظاهرةٍ، فالكفْرُ بها جريمةٌ عظيمةٌ، وكفروا بالحقّ المُبين الواضح، وأولَى بمثلِ هذا الإيتاءِ أن يُشْكَرَ ويُحتَرمَ ويُصانَ حقُّه.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (عطا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عطو، أتي)، والراغب، المفردات: (عطا، أتى)، وابن منظور، لسان العرب: (عطا، أتي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو، أتى، عطو)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 86، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»